ومن الزيوت الخفيفة المستقطرة من القطران التولوين يستخرج منهُ مسحوق حلاوتهُ ثلاث مئة ضعف السكر يسمى السكارين وهو يفضل السكر العادي من وجوه كثيرة فان السكر العادي كثيرًا ما يحدث مغصًا في الاطفال الذين يرضعون من الرضاعة وغيرهم ممن يشرب القهوة المحلاة بالسكر لاختمارهِ في معدهم فاذا حلي اللبن والقهوة وغيرها بالسكارين لم يحدث شيء من ذلك لان السكارين لا يحمض ولا يختمر كالسكر. والمرضون لمرض البول السكري يعتمدون عليهِ في تحلية طعامهم

ويستخرج من القطران انواع كثيرة من العطور كالمسك الصناعي وثمن الرطل منهُ نحو ٥٠ جنيهًا وعطر الخزام والفانلا وما اشبه

وخلاصة القول ان هذه المادة السوداء اللزجة اكثر مواد الكون اختلاطًا في تركيبها وتعددًا في عناصرها واجسامنا وجميع ما يتعلق بها من مأكل وملبس مشابهة للقطران ومشتقاتهِ

تاريخ محمد علي باشا

حال القطر قبل توليتهِ

وعدنا في الجزء الماضي ان نبسط الكلام على حال القطر المصري قبلما تولاهُ محمد علي باشا وفي مدة ولايتهِ وبعدها اظهارًا لما لهُ فيهِ من المآثر والمنجزات لذلك نقول

انتهى احتلال الفرنسويين للقطر المصري بعد ان اقاموا فيهِ نحو ثلاث سنوات فقد وصلت طلائع جيشهم الى الاسكندرية في اول يوليو سنة ١٧٩٨ واقلعوا منها في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١ وكانت تلك السنوات الثلاث سنوات حروب وثورات ومع ذلك استتب لعلمائهم ان يبحثوا في جغرافية البلاد وآثارها وزراعتها وصناعتها ويؤلفوا في ذلك من الكتب ما لم يؤلف مثلهُ لا قبلهُ ولا بعدهُ واستتب لجنودهم ان يضعفوا شوكة المماليك حتى صار اذلالهم امرًا ميسورًا ولرجال الادارة منهم ان ينظموا حال البلاد ويجروا فيها من العدل ما كان اجراؤهُ ممكنًا مع شدة التحريض عليهم من كل جهة

قال الجبرتي عند ذكرهِ محاكمة الذي قتل الجنرال كلابر انهُ ذكرها على ركاكة لغتها لانها "تتضمن خبر المرافعة وكيفية المحاكمة وما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يدينون بدين وكيف تجاري على كبيرهم ويعسوبهم رجل افاقي اهوج وغدرهُ وقبضوا عليهِ وقرروهُ ولم يعجلوا بقتلهِ وقتل من اخبر عنهم بمجرد الاقرار

بعد ان عثروا عليهِ ووجدوا معهُ آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم واميرهم بل رتَّبوا محكمة ومحاكمة واحضروا القاتل وكرروا عليهِ السؤال والاستفهام مرةً بالقول ومرة بالعقوبة ثم احضروا مَن اخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفَّذوا الحكم فيهم بما اقتضاهُ التحكيم واطلقوا مصطفى افندي البرصلي الخطاط حيث لم يلزمهُ حكم ولم يتوجَّه عليهِ قصاص كما يُفهم جميع ذلك من المسطور بخلاف ما رأيناهُ بعد ذلك من افعال اوباش العساكر الذين يدَّعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرَّد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضهُ بعدُ "

وقال بعيد ذلك واصفًا الديوان الذي رتبهُ الجنرال منو لادارة الاحكام "وفيهِ (اي في جمادى الثانية سنة ١٢١٥) شرعوا في ترتيب الديوان على نسق غير الاول من تسعة معممين لا غير وليس فيهم قبطي ولا وجاقلي ولا شامي وليس فيهِ خصوصي ولا عمومي بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء وهم الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبهُ والشيخ مومى السرسي والشيخ خليل البكري والسيد علي الرشيدي نسيب ساري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسمعيل الزرقاني وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسمعيل الخشاب والشيخ علي كاتب عربي وقاسم افندي كاتب رومي وترجمان كبير القس رفائيل وترجمان صغير الياس نخر الشامي والوكيل فوريه ويقال لهُ مدير سياسة الاحكام الشرعية . وعينوا عشر جلسات في كل شهر واعدوا للمترجمين والكتبة الفرنسوية مكانًا خاصًّا يجلسون فيهِ في غير وقت الديوان لترجمة اوراق الوقائع وغيرها وجعلوا لها خزائن للسجلات وفتحوا ايضًا بجانبها دارًا نفذوها اليها وشرعوا في تعميرها وتأنيقها وسموها بمحكمة التجار واخذوا يرتبون انفارًا من تجار المسلمين والنصارى يجلسون فيها للنظر في القضايا المتعلقة بقوانين التجار والكبير على ذلك كلهِ فوريه ... ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة اربعة عشر الف فضة في كل شهر وللقاضي والمفيد والكاتب العربي والمترجمين وباقي الخدم مقادير متفاوتة تكفيهم وتغنيهم عن الارتشاء "

وكان الساري عسكر وهو الجنرال منو قد اعتنق الاسلام ويظهر مما كان يخاطب بهِ اهل مصر انهُ كان يبذل اقصى الجهد لجعلهم يحبون النظام وينظمون احوال البلاد من كل وجه وقد احصى المواليد والوافيات والزيجات وضبط الاملاك "حتى يتسَّر للحاكم الشرعي الحكم بالعدل والانصاف وينقطع الخلف والخصام بين الورثة " . وهذه الفقرة منقولة عن كتاب طويل كتب بهِ الى مشايخ الديوان ردًا على تهنئتهم لهُ بمولود رُزق بهِ من زوجتهِ ابنة الرشيدي

وقد استهله بالبسملة والشهادة فقال "بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله من عبد الله جاك منو ساري عسكر امير عام جيوش دولة جمهور الفرنسوية بالشرق ومظاهر حكومتها ببر مصر حالاً الى حضرة المشايخ والعلماء اهالي الديوان الشيف بمصر القاهرة حالاً ادام الله فضائلهم" وختمهُ بقولهِ "اننا نشكر فضلكم على ما اظهرتم لنا تهنئةً بولادة ولدسيدي السيد سليمان مراد جاك منو فنطلب من الله سبحانهُ وتعالى واسألهُ كذلك بجاو رسولهِ سيد المرسلين ان يجود عليَّ بهِ زمانًا مديدًا وان يكون للعدل محبًّا وللاستقامة والحق مكرمًا وفي وعدهِ صادقًا وان لا يكون من اهل الطمع"

وسواءٌ كان الجنرال منو مخلصًا في اسلامهِ او غير مخلص وسواءٌ عبَّر هذا الكتاب عمَّا يخالج ضميرهُ حقيقةً او عما يخالج ضمير كاتبهِ لهُ فلا شبهة في ان تكرير النصح والارشاد على الصورة التي فيهِ يؤثر في النفوس الاَّ اذا كانت خالية من جراثيم الفضائل . ولم يكن الجبرتي متشيعًا للفرنسويين ولا مغضيًا عن زلاَّتهم بل ذكرها واسهب فيها فخطأ هدمهم لكثير من المنازل لكي يبنوا من انقاضها الاسوار والاستحكامات ويتسع معهم مجال الهجوم والدفاع . وتغريمهم الناس بالاموال الباهظة لدفع النفقات الكثيرة التي كانت لازمة لهم واغراءهم النساء المصريات بالجري على عادات نسائهم قال "انهُ لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهنَّ حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهنَّ الطرح الكشمير والمزركشات المصبوغة ويركبنَ الخيول والحمير ويسقنها سوقًا عنيفًا مع الضحك والقهقهة فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش فتداخلنَ معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهنَّ وكان ذلك التداخل اولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائهِ فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في اهلها واخذوا ما استحسنوهُ من النساء والبنات صرنَ مأسورات عندهم فزيوهنَّ بزي نسائهم واجروهنَّ على طريقتهنَّ في كامل الاحوال فخلع اكثرهنَّ نقاب الحياء بالكلية . . . وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهنَّ رغبةً في سلطانهم ونوالهم فيظهر حال العقد الاسلام وينطق بالشهادتين . وصار مع حكام الاخطاط منهم النساء المسلمات متزيات بزيهم ومشينَ معهم في الاخطاط للنظر في امور الرعية والاحكام العادية والامر والنهي وتمشي المرأة بنفسها او معها بعض اترابها واضيافها وامامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهنَّ الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن في الاحكام

"ولما اوفى النيل اذرعهُ ودخل الماء في الخليج وجرت فيهِ السفن وقع عند ذلك من

تبرّج النساء واختلاطهنّ بالفرنسيس ومصاحبتهم لهنّ في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل وعليهنّ الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب "

وخلاصة القول ان الجبرتي لم يترك للفرنسويين شائبة الاّ ذكرها مصوراً اياها بالصورة التي رآها فيها لكنهُ كان نقّاداً منصفاً على حسب ما كان يتراءى لهُ فشهد لهم بعدل الاحكام كما شهد على غيرهم بالجور والعسف وعلى كثيرين من اهالي مصر بانهم لم ينفكوا عن مكاتبة اعداء الفرنسويين وتحين الفرص للايقاع بهم او اخذهم الامور بالهزل والسخافة

ويظهر لنا انهُ لولا انكلترا لكانت مصر الآن بلداً فرنسويًّا كسائر الولايات الفرنسوية لكن انكلترا عاونت الباب العالي على استرجاع الديار المصرية ثم تركتها لهُ لا لانها كانت تعجز عن البقاء فيها كما بقيت في الهند ولا لانها كانت تعلم ان العثمانيين اصلح لادارتها من الفرنسويين بل لانها كانت تظن ان مصلحتها تقتضي بقاء هذه الديار جزءاً من السلطنة العثمانية. وقد انفقت على استرجاعها اموالاً طائلة فان ما انفقتهُ الهند وحدها في هذا السبيل بلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات وجاءت الجنود العثمانية بقيادة يوسف باشا الصدر الاعظم لمعاونة الانكليز على ذلك وكانت مؤلفة من الانكشارية والالبانود ومحمد علي في قيادة فرقة من الارنؤود

ولما رأى الفرنسويون ان لا قبل لهم بمناوأة الانكليز والعثمانيين بعد ان قطع الانكليز سد ابي قير وحصروا الجنرال منو في الاسكندرية ومنعوهُ من نجدة جنود القاهرة صالحوهم على الخروج من القاهرة بكل ما لهم من مال ومتاع وتعهد الانكليز ان يقدموا لهم الركائب برًّا والمراكب بحرًا لايصالهم الى فرنسا . ولما خرجت الجنود الفرنسوية من القاهرة عجب الانكليز من كثرة عددهم وعددهم واستعظموا الفوز الذين فازوا بهِ بأخذ المدينة من غير قتال. وتم عقد الصلح في القاهرة في ٢٣ يونيو سنة ١٨٠١ واشترط فيهِ ان يخرج الفرنسويون منها في مدة خمسين يوماً ويمضوا الى رشيد ويقلعوا من هناك الى بلادهم بسفن يعدها لهم الانكليز ويجوز لكل احد من اهل مصر ومن سكانها ان يذهب معهم ويقدم لهم الانكليز كل ما يحتاجون اليهِ من نفقة ومؤونة وجمال ومراكب . ويبقى جرحاهم في مصر ليعالجوا فيها الى ان يشفوا وينفق عليهم العثمانيون

ولم يكد الفرنسويون يخرجون من القاهرة حتى حلت فيها الفوضى وفعل العثمانيون المنكرات. ذكر الجبرتي " ان شخصاً من العسكر شرب شربة من عرق السوس ولم يدفع ثمنها فكلم صاحبها القلق الانكشاري فاحضرهُ وامرهُ بدفع ثمنها ونهرهُ واراد ضربهُ فاخرج العسكري الطبنجة وضرب القلق فقتلهُ وهرب الى حارة الجوانية ودخل الدار وامتنع فيها وصار يضرب بالرصاص

على كل من قصدهُ فقتل خمسة ومرَّ شخصان من الارنؤود بتلك الخطة فقتلهما الانكشارية لكون الغريم ارنؤوديًّا من جنسهما فلما اعياهم امرهُ حرقوا عليهِ الدار فخرج هاربًا فقبضوا عليهِ وقتلوهُ وقُتل تسعة اشخاص في شربة عرق سوس. ووقع في ذلك اليوم ايضًا ان شخصين من القليونجية دخلا دار رجل نصراني فاخذا منها بقجتين من الثياب وخرجا فوجدا شخصين ماريْن من الفلاحين فسخَّراهما في حمل البقجتين فخرج النصراني وشكا امرهُ الى القلق فامر بالقبض على العسكريين فتخلصا وهربا بعد ان جُرح احدهما فاخذوا الشخصين المسخرين وقطعوا رأسيهما ظلمًا وعدوانًا وذلك من مبادىء قبائحهم... وكثر اشتغال العسكر بالبيع والشراء وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوَّاقة وارباب الحوانيت دراهم يأخذونها منهم في كل يوم ويأخذون من الخابز الخبز من غير ثمن وكذلك يشربون القهوة من القهاوي ويحتكرون ما يريدون من الاصناف ويبيعونها باغلى الاثمان ولا يسري عليهم حكم المحتسب وكذلك تسلطوا على الناس بالاذية لادنى سبب وتعرَّضوا للسكان في منازلهم فتأتي منهم الطائفة ويدخلون الدار ويأمرون اهلها بالخروج منها ليسكنوها فان لاطفهم الساكن واعطاهم دارهُ تركوهُ وان عاندهم سبوهُ وضربوهُ ولو عظيمًا وان شكا الى كبيرهم قربل بالتبكيت ويقال لهُ ألا تفسحون لاخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وانقذوكم من الكفار. والقلقات والانكشارية الذين دخلوا حارات النصارى كلفوهم اضعاف ما كلفوا بهِ المسلمين. ويأتي الشخص من العسكر ويجلس على بعض الحوانيت ثم يقوم فيدعي ضياع كيسهِ او سقوط شيء منهُ ويبدلون الدنانير الزيوف الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهرًا وانتشروا في القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح فتذهب الجماعة منهم الى القرية ويبدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهمونهم انهم حضروا اليهم بأوامر اما لرفع الظلم عنهم او ما يبتدعونهُ من الكلام المزور ويطلبون حق طريقهم مبلغًا عظيمًا ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم بالكلف الفاحشة ويخطفون الاغنام ويهجمون على النساء وغير ذلك مما لا يحيط بهِ العلم. او يركب العسكري حمار المكاري قهرًا ويخرج بهِ الى جهة الخلاء فيقتل المكاري ويذهب بالحمار فيبيعهُ في ساحة الحمير وتسلطوا على الناس بالسب والشتم وجعلوهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك وتمنى اكثر الناس وخصوصًا الفلاحين احكام الفرنسوية" انتهى باختصار

واكثر الجبرتي من مثل هذا الكلام والظاهر ان طابع كتابهِ حذف منهُ اشياء كثيرة من هذا القبيل. ومع ذلك رأى هؤلاء الجنود المؤمنون واهالي مصر عمومًا ان الفرنسويين الكفار قد نجَّسوا ارض مصر فارادوا ان يطهروها من آثارهم" فاحضروا ابنة الشيخ البكري وكانت

من تبرّج مع الفرنسيس وسألوها عما كانت تفعله فقالت اني تبت عن ذلك فقالوا نوالدها ما تقول انت فقال اقول اني بريء منها فكسروا رقبتها "واحضروا امرأة تسمّى هوى كانت تزوجت رجلاً اسمهُ تقولا القبطان ثم هربت وعادت الى زوجها الاول فاستأذن الوزير في قتلها فاذن لهُ فخنقها في ذلك اليوم ومعها جاريتها البيضاء ام ولدٍ وقتلوا ايضاً امرأتين من اشباههنَّ. ومن هذا القبيل ان الوزير كان يذهب الى الجامع ويحضر الجمعة وهذان النعلان اي قتل بعض النساء والذهاب الى الجامع كنيا لتطهير البلاد من الكفار. اما اعمال الانكشارية وغيرهم من الجنود العثمانية واطلاق العنان للمماليك في الصعيد وسلب اموال العباد بما لا يحصى من الاساليب كل ذلك مما يُغتفر لان الجنود مؤمنون جاؤوا لانقاذ اخوانهم من الكفار

ثم ارسلت الجنود العثمانية الى الصعيد للايقاع بالمماليك واستئصال شأفتهم لكن اهالي البلاد نفروا منهم على ما قالهُ الجبرتي " لما رأوهُ فيهم من الظلم والفجور والعنف باهل الريف والعسف بهم وطلبهم الكلف الشاقة والقتل والحرق وذلك هو السبب الداعي لنفور اهل الريف منهم وانضمامهم الى المصرلية " اي المماليك

ولما ضاق الامر بالمماليك كتبوا الى والي مصر ما ملخصهُ نقلاً عن الجبرتي "ان الارض ضاقت عليهم واضطرهم الحال والضيق وفراق الوطن الى ما كان منهم وانهم في طاعة الله والسلطان ولم يقع منهم ما يوجب ابعادهم وطردهم وقتلهم فانهم خدموا وجاهدوا وقاتلوا مع العثمانية وابلوا بالفرنسوية فجوزوا بضد الجزاء ولا يهون بالنفس الذل والاقبال على الموت فاما ان تعطونا جهة نتعيّش فيها او ترسلوا لنا اهلنا وعيالنا وتشهّلوا لنا مراكب على ساحل القصير فنسافر فيها الى جهة الحجاز او تعينوا لنا جهة نقيم فيها نحو خمسة اشهر مسافة ما نخاطب الدولة في امرنا ويرجع الينا الجواب ونعمل بمقتضى ذلك فان لم تجيبونا لشيء من ذلك فيكون ذنب الخلائق في رقابكم لا رقابنا "

فاجيبوا باعطاء الامان لجميع الامراء المصرلية وانهم يحضرون الى مصر ويقيمون فيها ولهم ما يرضيهم ما عدا ابرهيم بك الالفي وعثمان بك البرديسي وابا دياب فانهم مطلوبون الى حضرة السلطان ليتوجهوا اليهِ فيعطيهم مناصب وولايات كما يحبون وان لم يرضوا فليأخذوا اقطاع اسنا ويقيموا فيهِ. ولما وصلهم هذا الجواب وقرأوهُ في ديوانهم وعساكرهم مصطفة حولهم يناديها تكلم الالفي وقال للرسل " اما قولكم نذهب الى اسلامبول ونقابل السلطان ينعم علينا فهذا مما لا يمكن وان كان مرادهُ ان ينعم علينا فاننا في بلادهِ وانعامهُ لا يتقيّد بحضورنا بين يديهِ واما بقية اخواننا فهم بالخيار ان شاءوا اقاموا معنا والاَّ ذهبوا وكل انسان امير نفسهِ واما كون

حضرة الباشا يعطينا اقطاع اسنا فلا يكفينا هذا وانما يكفينا من اسيوط الى آخر الصعيد ونقوم بدفع خراجه فان لم يرضوا بذلك فان الارض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا ونأكل من رزق الله ما يكفينا ومَن اتى الينا حاربناهُ حتى يكون من امرنا ما يكون "

وكانت المصيبة بالمماليك مزدوجة على اهل القطر فهم يظلمون الناس حيث حلُّوا ويسلبون ما عندهم والجنود التي ترسل لمحاربتهم تفعل فعلهم او تزيد حتى بلغ انين الاهالي عنان السماء وحاول الانكليز انقاذهم من الجور مرارًا ولكن ليس جملةً

هذا ولنعد الى ذكر الحوادث التاريخية المتصل بها من الامور الاجتماعية فنقول: ان الجنرال منو حاصر في الاسكندرية ولم يسلم وقتما سُلِّمت القاهرة ولكنهُ اضطرَّ اخيرًا الى التسليم فسلَّم في ٢٤ اغسطس سنة ١٨٠١ واقلعت الجنود الفرنسوية من الاسكندرية في ١٨ سبتمبر بكل ما لهم من اتباع ومتاع وبلغ عددهم احد عشر الفًا عدا الذين اقلعوا من رشيد من حامية القاهرة وقد انفق الانكليز النفقات الطائلة في هذه الحملة على غير جدوى لان السر هنري سمث كان قد عقد معاهدة مع الفرنسويين في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ على ان يخرجوا من القطر المصري كما خرجوا منهُ الآن وهي المعروفة بمعاهدة العريش ولكن الحكومة الانكليزية ابت التصديق عليها ثم عادت الى التصديق على مثلها تمامًا بعد ما مرَّ عشرون شهرًا وخسرت الملايين الكثيرة من اموالها والالوف من رجالها وقائد الحملة كلها وهو الجنرال ابركرمبي الذي قتل امام الاسكندرية

وخرج الفرنسويون من الديار المصرية كما تقدم ثم تبعهم الانكليز وبقيت البلاد في يد العثمانيين وكانت الدولة قد ولَّت عليها واليًا اسمهُ محمد باشا خسرو فوصلها في اوائل سنة ١٨٠٢ ودخل القاهرة في ١٧ رمضان سنة ١٢١٦ الموافق ٣١ يناير سنة ١٨٠٢ ولم يفعل من الافعال التي ترضي الاهالي الاَّ حضورهُ الجمعة وزيارتهُ الاضرحة واكثارهُ من الباس الفراء للذين يريد اصطناعهم او تملقهم اما سيرهُ في سياسة البلاد فيدل على جهل مطبق وميل الى ارهاق الناس بكل واسطة ممكنة ولو كان نفعهُ منها قليلاً مثال ذلك اغراؤهُ اهالي العاصمة برفع التراب والانقاض من امام منزلهِ قال الجبرتي "واحضروا قوائم ارباب الحرف التي كتبت ايام الفرنسيس ونبهوا عليهم بالحضور فاول ما بدأوا بالنصارى الاقباط فحضروا يتقدمهم رؤساؤهم جرجس الجوهري وواصف وفلتوس فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفي ثاني يوم حضر منهم طائفة كذلك ولما انقضت طوائف الاقباط حضر النصارى الشوام والاروام ثم طلبوا ارباب الحرف من المسلمين وبعد ان يفرغوا من العمل ويؤذن لهم في الذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار

باشا برسم البقشيش للضباطين والزمارين واذ حضرت طائفة وقدّم بين يديها هدية اوجمالة طوّلوا عنقها لمدة واتعبوها واستخفوها . فاجتمع على الناس عشرة اشياء من الرذالة وهي السخرة والعونة واجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الاعداء وتعطيل المعاش واجرة الحمام" (للتنظيف من الوسخ)

وكان يحاول احياناً التكفير عن ذنوبه بزيارة جامع او ضريح وتفريق شيء من المال او الحسنة على طلبة العلم الاّ ان الجبرتي لم يعتدّ بذلك بل قال فيه

وانما خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً

واخيراً قام الارنؤود عليه باغراء محمد علي وحصروه في داره وحرقوها عليه وكانت اخر دور مصر كما سيجيء فخرج منها وهرب بحاشيته وعروته من الجند بعد ان اقام في الولاية ستة وثلاثة اشهر وواحداً وعشرين يوماً وكان على ما قال الجبرتي "سيّء التدبير لا يحسن التصرّف يحب سفك الدماء ولا يتروّى في ذلك ولا يضع شيئاً في محله يتكرّم على من لا يستحق ويبخل على من يستحق وفي آخر مدته داخله الغرور وطاوع قرناء السوء المحدقين به والتفت الى المظالم والقرد على الناس فانقذ الله منه عباده وسلّط عليه جنده فخرج مرغوماً مقهوراً على هذه الصورة ولم يزل في سيره الى ان نزل بقليوب بعد الغروب فعشّاه الشواربي شيخ قليوب ثم سار ليلاً الى دجوة فانزل الحريم والاثقال في ثلاث مراكب وسار هو الى جهة بنها ومنها الى دمياط وغالب جماعته تخلفوا عنه بمصر وكذلك الكتخدا وديوان افندي والخازندار والسلحدار"

وفي ١٤ محرم سنة ١٣١٨ اجتمع المشايخ والقاضي ورؤساء الجند بايعاز محمد علي وولّوا عليهم رجلاً من الارنؤود اسمه طاهر باشا او جعلوه قائمقاماً الى ان تأتيه الولاية من الاستانة لكن الانكشارية نقموا عليه لانه مال الى الارنؤود وهجموا عليه وقتلوه بعد ان قام في الولاية ستة وعشرين يوماً . قال الجبرتي "ولو طال عمره اكثر من ذلك لاهلك الحرث والنسل وكان به هوس وانسلاب وميل للسلوبين والمجاذيب والدراويش وعمل له خلوة بالشيخونية كان يبيت فيها كثيراً ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردي الى السطح في الليل ويذكر معه"

وكان احمد باشا والي المدينة المنورة في مصر فرغب الناس في توليته عليهم فعارضهم محمد علي في ذلك فجمع احمد باشا المشايخ وطلب منهم ان يجمعوا الرعية ويأمروهم بالخروج على الارنؤود وقتلهم وكان محمد علي والارنؤود رجاله في القلعة فجعلوا يطلقون المدافع على بيت احمد باشا فاخذ امره في الانحلال وكان المماليك قد حضروا الى امام مصر والظاهر انهم ما لأوا الارنؤود على الفتك بالانكشارية وبكل من ناوأهم فارسلوا الى احمد باشا ليخرج من

المدينة فتركهُ من كان معهُ من اعيان العثمانية وذهبوا الى محمد علي والتجأوا اليهِ وخرج احمد باشا في حالة شنيعة واتباعهُ مشاة بين يديهِ وعند ما خرج من البيت دخلهُ الارنؤود ونهبوا جميع ما فيهِ وكانت مدة ولايتهِ يوماً وليلةً . والتجأ الدفتر دار وكتخدا بك الى محمد علي فاذن لهما في الذهاب الى بيتيهما ثم هجم الارنؤود عليهما وقتلوهما

وولت الدولة وزيراً اسمهُ علي باشا الطرابلسي فاتى الى الاسكندرية وكتب الى امراء المماليك يعلمهم بوصولهِ ويخبرهم انهُ وُلّي على الاقطار المصرية من الاسكندرية الى اصوان وقال لهم في آخر كتابهِ كان الواجب ان لا تدخلوا المدينة (القاهرة) الاَّ باذن من الدولة فان سيف السلطنة طويل وربما استعان السلطان عليكم ببعض المخالفين الذين لا طاقة لكم بهم . فكتبوا اليهِ جواباً قالوا فيهِ . " انهُ لما كان محمد باشا متولياً بذلنا الجهد في استرحامهِ وهو لا يزيد معنا الاَّ قسوةً ولا يسمح لنا بالاقامة في القطر المصري جملة وجرَّد علينا التجاريد من كل جهة وكان الله ينصرنا عليهِ في كل مرة الى ان حصل بينهُ وبين عساكرهِ وحشة بسبب علوفاتهم فقاموا عليهِ وحاربوهُ واخرجوهُ من مصر بمعونة طاهر باشا ثم قامت الانكشارية على طاهر باشا وقتلتهُ ظلماً وقامت العساكر بعضها على بعض وكنا حضرنا الى جهة الجيزة باستدعاء طاهر باشا فلما قُتل بقيت المدينة رعيةً من غير راعٍ وخافت الرعية من جور العساكر وتعديهم فحضر الينا المشايخ والعلماء واختيارية الوجاقلية واستغاثوا بنا فارسلنا من عندنا من ضبط العساكر وامَّن المدينة والرعية . واما محمد باشا فانهُ نزل الى دمياط وظلم البلاد والعباد وفرَّد عليهم الفرَد الشاقة فتوجه عثمان بك البرديسي لتأمين اهالي القرى الى ان وصل الى ظاهر دمياط فاقام بمن معهُ خارج المدينة فما شعر الاَّ ومحمد باشا صدمهم ليلاً وحاربهم فحاربوهُ ونصرهم الله عليهِ فانهزمت عساكرهُ وقبض عليهِ . وهو الآن عندنا في الاعزاز والاكرام ونحن الآن على ذلك حتى يأتينا العفو . واما قولكم اننا نخرج من مصر فهذا لا يمكن ولا تطاوعنا جماعتنا وعساكرنا على الخروج من اوطانهم واما قولكم ان حضرة السلطان يستعين علينا ببعض المخالفين فاننا لا نستعين الاَّ بالله وقد ارسلنا عرضحال نطلب العفو ونترجَّى الرضا ونحن منتظرون الجواب"

وتلكأ علي باشا عن الحضور الى مصر وارسل الى المماليك يخبرهم برضا الدولة عنهم بشفاعة الصدر الاعظم يوسف باشا وشفاعتهِ هو وان يقيموا بارض مصر اين شاءوا وقطع لكل امير منهم خمسة عشر كيساً فسروا بذلك ولكنهم عرفوا بعد حين انهُ عازم على الغدر بهم فخادعوهُ هم والارنؤود حتى جاء مصر واخبروهُ بما اطَّلعوا عليهِ من امرهِ وطردوهُ وقتلوهُ في اثناء الطريق

هو وحاشيتهُ وكان يخص كفتهُ معهُ فنادى واحدًا قبل ان اسلم الروح وقال لهُ بعرضك يا فلان ان معي كنتًا داخل الخرج فكفني بهِ وادفني ولا تتركني مرميًا . قال الجبرتي وكان ذلك نتيجة "سوء سريرتهِ وخبث ضميرهِ فلقد بلغنا انهُ قال لعسكرهِ ان بلغت مرادي من الامراء المصريين (المماليك) وظفرت بالارنؤود ابحت لكم المدينة والرعية ثلاثة ايام تفعلون بها ما شئتم والدليل على ذلك ما فعلهُ بالاسكندرية مدة اقامتهِ بها من الجور والظلم ومصادرات الناس في اموالهم وبضائعهم وتسلط عساكرهِ عليهم بالجور والخطف والنسق وترذيلهُ لاهل العلم واهانتهُ لهم حتى انهُ كان يسمي الشيخ محمد المسيري الذي هو اجل مذكور في الثغر بالمزوّر اذا دخل عليهِ مع امثالهِ"

ولا ندري هل ما رواهُ الجبرتي عنهُ كان صحيحًا او تخلقًا عليهِ فقد قال بُعَيْد ذلك" ان محمد علي حرّش العساكر على محمد باشا خسرو وازال دولتهُ واوقع بهِ بمعونة طاهر باشا والارنؤود ثم استعان بالاتراك على طاهر باشا حتى اوقع بهِ ايضًا وظهر امر احمد باشا وعرف (اي محمد علي) انهُ اذا تمّ لهُ الامر ونما امر الاتراك لا يبقون عليهِ فعاجلهُ وازالهُ بمعونة الامراء المصرية (المماليك) واستقرّ معهم حتى اوقع بالاشتراك معهم بالدفتردار وانكتخدا ثم حاربوا محمد باشا بدمياط واخذوهُ اسيرًا واحتالوا على علي باشا الطرابلسي واوقعوهُ في فخهم وقتلوهُ كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصًا للبرديسي (من امراء المماليك) فانهُ تآخى معهُ وجرح كلٌّ منهما نفسهُ ولحس من دم الآخر واغترّ بهِ البرديسي وصدقهُ واصطفاهُ وفعل بمعونتهِ ما فعل بالالفي الكبير واتباعهِ وشرّدهم وقبض جيناحيهِ بيدهِ"

فان محمد بك الالفي الكبير وهو اعظم امراء المماليك ذهب الى البلاد الانكليزية فاكرمهُ الانكليز وردوهُ بالهدايا والتحف الكثيرة فحسدهُ سائر المماليك واضمروا لهُ السوء فاضطر ان يهرب من وجههم في البلاد ويختبئ في مجموع العرب وسلبوا كل ماجاء بهِ من البلاد الانكليزية والظاهر من كلام الجبرتي ان المماليك فعلوا ذلك باغراء محمد علي

ثم ان محمد علي انقلب على المماليك واطلق محمد باشا خسرو الوالي الاسبق وانضمّ اليهِ وطرد المماليك من القاهرة وضواحيها بعد ان نكل بهم ونهب عسكرهُ اموالهم وبيوتهم وامتعتهم وسبوا حريمهم وسراريهم وجواريهم واتصل اذاهم بالاهالي فخربوا بيوتًا كثيرة ونهبوا ما كان فيها ولم يظل الامر على محمد باشا خسرو حتى خُذل وجاء احمد باشا خورشيد من الاسكندرية وقوبل بالترحاب وجاءتهُ بشارة في ٧ محرم سنة ١٢١٩ بتقليدهِ ولاية الديار المصرية ونصرهُ محمد علي في اول الامر ثم مضى الى الوجه القبلي لمنازلة المماليك فاستدعى احمد باشا جنودًا من

الدلاة لكي يعينوه على محمد علي وجنودهم الارنؤود كأنهُ اوجس منهُ ومنهم شرًّا فلما وصل الدلاة الى مصر عاد محمد علي اليها حالاً فأمرهُ احمد باشا بالعودة الى الصعيد لقتال المماليك فقال انهُ انما اتى في طلب العلائف

وجاء حينئذٍ قاصد من اسلامبول وعلى يدهِ تقليد لمحمد علي بولاية جدة فابى محمد علي الصعود الى القلعة ووقع الاتفاق على ان احمد باشا ينزل الى بيت سعيد آغا ويخلع عليهِ هناك خلعة ولاية جدة فلما حضر وحضر محمد علي وتقلَّد ولاية جدة وخرج يريد الركوب ثار عليهِ الجنود وطلبوا علائفهم فقال لهم هوذا الباشا عندكم وركب وذهب الى دارهِ بالازبكية وصار يثير الذهب في طول الطريق فمضى الجنود الى احمد باشا ومنعوهُ من الركوب فوعدهم خيرًا وطلب الاموال الطائلة من الاهالي وارسل الدلاة الى قليوب لينهبوها فركب المشايخ الى بيت القاضي واجتمع معهم كثيرون من الرؤساء والعظماء وذهبوا الى محمد علي وقالوا لهُ انا لا نريد احمد باشا حاكمًا علينا ولا بد من عزلهِ من الولاية فقال ومن تريدون واليًا قالوا لا نرضى الاَّ بك فتكون واليًا علينا بشروطنا لما توسمناهُ فيك من العدالة والخير فامتنع اولاً ثم رضي واحضروا لهُ كركًا وعليهِ قفطان وقام اليهِ السيد عمر والشيخ الشرقاوي فالبساهُ ونادوا بهِ واليًا على الديار المصرية وكان ذلك عصر الاثنين في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ للهجرة الموافق ١٣ مايو سنة ١٨٠٥

ولم يستتب الامر لمحمد علي حالاً لان انصار احمد باشا كانوا كثارًا وكانت القلعة في يدهِ ووقع الجدال بين بعض انصارهِ و بين الدين ولوا محمد علي فقالوا لهم كيف تعزلون مَن ولاَّهُ السلطان عليكم وقد قال الله تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم. فقالوا لهم "ان اولي الامر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل ظالم وجرت العادة من قديم الزمان ان اهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور فانهم يعزلونهُ ويخلعونهُ"

والظاهر ان الباب العالي رضي بما فعلهُ المصريون فبعث بفرمان التولية الى محمد علي من ٢٠ ربيع الاول ولُقب فيهِ بمحمد علي باشا والي جدة سابقًا ووالي مصر حالاً وأُمر احمد باشا بالنزول الى الاسكندرية حتى يأتيهُ امر بالتوجه الى بعض الولايات

ولا تكاد تجد في الجبرتي ولا في غيرهِ من التواريخ العربية سوى ذكر الحروب والمظالم والمغارم لكن يؤخذ مما يبين ذلك ما يدلُّ على ان الناس لم يتركوا زرعهم وعلى ان التجارة كانت رائجة بعض الرواج ولا سيما مع الشرق الاقصى ولولا الحروب والثورات لنال القطر المصري من ذلك ثروة وافرة جدًّا فقد نهب العرب مرة قافلة التجار الواصلة من السويس

وكان فيها اربعة آلاف جمل حاملة من البن والبهار والقماش. وتغدّى احمد باشا مرة في دار السيد احمد المحروقي وجلس عنده نحو ساعتين ثم ركب وصعد الى القلعة فارسل المحروقي خلفهُ هدية فيها بتج قماش هندي وتفاصيل ومصوغات مجوهرة وشمعدانات فضة وذهب وتحائف وخيول لهُ ولكبار اتباعهِ

ويظهر مما كان يذكر عرضاً عن البضائع المنهوبة والمسلوبة ان التجارة كانت متصلة مع اليمن والهند والصين والبلاد الاوربية على قلة الامن وصعوبة المواصلات

وكذلك الصناعة لم تكن معدومة ولا سيما صناعة البناء والنقش كما يظهر من وصف بيت الالفي الذي حرق لما كان فيهِ خسرو باشا فقد قيل انهُ كان في كواهُ الواح الزجاج البلور الكبار التي يساوي الواحد منها خمسمائة درهم اي نحو خمسة عشر جنيهاً وكان مفروشاً كلهُ بالبسط الرومية والفرش الفاخر وفيهِ الستائر والموائد المزركشة وطاولات المراتب كلها مقصبات

هذا وسيأتي الكلام على ما اجراهُ محمد علي في هذا القطر مدة ولايتهِ

هل يسود السلام

لم تمرّ بالانسان حقبة من التاريخ الاَّ سمعنا لهُ يسعى في ابطال الحرب وتعزيز السلم ثم لم يكن يطول بسعيهِ المطال حتى كان يعود منهُ بصفقة الخاسر إمَّا لأن الحرب سنَّة طبيعية لا يمكن ابطالها ولا تغييرها واما لأن الشروط والقيود التي يمكن ابطال الحرب عندها لم تتوفر في تلك المساعي واما لانهُ لم يأنِ الاوان لتأييد ملك السلام. وآخر ما اتاهُ الانسان من تلك المساعي واعظمهُ سعيُ قيصر الروس منذ سبع سنوات في عقد مؤتمر يقرر السلام ويوجب على الدول المشتركة فيهِ إبطال المعدات الحربية وفصل كلّ خلاف بالوسائل السلمية او التحكيم. فعُقد المؤتمر وقرر ما قرر مما أمسى مضغة في الافواه حتى سمّى بعضهم السلام الذي قررهُ بالسلام المسلَّح استهزاء. وكأنهُ قُدّر لابن آدم الشقاء والبلاء فلكي لا يجرأ فيما بعد على السعي في منع الحروب ساق شيطانها قيصر الروس نفسهُ الى غمارها فلبى مكرهاً او مختاراً وحكّم الحسام بدل الكلام فكان من امرهِ مع اليابان ما كان

وليس بخافٍ انهُ ان كان ابطال الحروب ميسوراً فالزمان الحاضر ليس زمان البحث في ذلك اذ روسيا واليابان في حرب عوان والدول الاخرى واقفة بالمرصاد لها تتعلَّم العظات والعبَر من حربهما. ولكن "وفي الساعة الظلماء يُنتقد البدرُ" فان البحث دائر الآن على عقد